

المحاضرة الاولى:

أوضاع المغرب الكبير مطلع العصر الحديث والغزو الإيبيري

مدخل :

مكنت الحركة التوسعية التي قادها الزعيم الروحي المهدي بن تومرت وقائده العسكري عبد المؤمن بن علي من إنشاء كيان الدولة الموحّدية التي شمل نطاقها الجغرافي البلاد المغاربية وضمت إليها أيضا جزءا من بلاد الأندلس، وذلك في القرن الثاني عشر ميلادي، ولكنها لم تقو على الصمود بعد هزيمتها أمام قوات الإفرنجة المسيحية في معركة حصن العقاب ١٢١٢م بشبه الجزيرة الإيبيرية، فبدأت تتداعى نحو الانقسام مشكّلة كيانات سياسية هي : بنو مرين في المغرب الأقصى(فاس) وبنو عبد الواد في المغرب الأوسط (تلمسان) وبنو حفص في المغرب الأدنى(تونس)، و هذه الكيانات السياسية قد شهدت مع نهاية العصر الوسيط ضعفا سياسيا واستنزافا لمقدراتها العسكرية بسبب أطماعها التوسعية على بعضها البعض وفي الوقت نفسه صراع اسري على القيادة داخل كل كيان.

أما في الضفة المقابلة "الأندلس"، فقد تآكلت جل الإمارات الإسلامية، بلنسية، أشبيلية طليطلة، قرطبة، سرقسطة، وغيرها أمام الزحف المسيحي ولم تصمد منها إلا إمارة بني الأحمر في غرناطة والتي ظلت صامدة إلى غاية ٢ يناير ١٤٩٢م. حينما استسلم ملكها أبو عبد الله وخرج منها ييكي وينوح ، وأمه عائشة تقول له: " أبك مثل النساء ملكا لم تدافع عنه دفاع الرجال" .

١/- الزحف البرتغالي على المغرب الأقصى :

مع مطلع القرن الخامس عشر ميلادي اهتمت الدول الأوربية بتقوية أساطيلها البحرية، فكانت البرتغال من بين تلك الدول سارعت إلى الاهتمام بهذا الجانب لما تراه مناسبا للسيطرة على السواحل المغربية الغنية بثرواتها ، وهذا ما أتاح الفرصة للبرتغاليين في وقت

مبكر إلى ممارسة العدوان ضد المسلمين في المغرب كخطوة أولى نحو الكشوفات الجغرافية.

كان الملك البرتغالي يوحنا يشجع أبنائه وجميع أفراد الأسرة المالكة ويحثهم على الجهاد ضد المسلمين، فكان لهذه التوصيات الصدى والأثر البالغ في الابن الثالث للملك ، وهو هنري الملاح henry the Navigator ، والذي شكل جماعة المسيح للانتقام من المسلمين في شمال إفريقيا والإسهام في عملية التبشير ونشر المسيحية الكاثوليكية في كل إفريقيا فبادر بإنشاء أسطول بحري قوي ، وأنشأ مدرسة بحرية لتعليم الشباب البرتغالي لفن الملاحة على الطرق الحديثة وأسس علمية صحيحة . فكانت جل أعماله في اعتقاده أنها سوف توصله إلى مصادر الثروة التي ينعم بها المسلمون وتمكنه من التحكم في معابر التجارة الدولية والتي كانت في ذلك الوقت تحت سلطة الأساطيل العربية الإسلامية .

ومن الأسباب الداعية للغزو البرتغالي على المغرب والتي يمكن حصرها في النقاط التالية :

- تزايد عدد سكان البرتغال ، وعدم القدرة على التوسع القاري على حساب مملكة قشتالة القوية.
- البحث عن أراضي زراعية جديدة تزود البرتغال بمختلف المنتجات الزراعية وخاصة منها القمح وقصب السكر إضافة إلى الجلود والأصواف .
- البحث عن مصادر الذهب .
- البحث عن اليد العاملة (العبيد) للعمل في مصافي السكر ، وعلى ظهور السفن .
- مواجهة القرصنة المغربية (في نظرهم) التي نشطت في أواخر القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر.
- اعتبار الغزو البرتغالي امتداد لحرب الاسترداد la reconquista ، وجزء من النضال ضد مسلمي الأندلس ، وهذا ما يدل على أن الروح الصليبية الانتقامية كانت متجذرة وقوية في نفوس البرتغاليين وحكامهم .

- سوء الأوضاع السياسية في المغرب الأقصى مما كان عاملا مساعدا ومحفزا لمباشرة لعملية الغزو حيث شهدت بدايات القرن الخامس عشر نشوب خلاف على العرش فيما بين أفراد البيت المريني وأدى إلى تزايد حدة الفتن والقلق ، فضعت الدولة واستبد الحجاب والوزراء بأمور الحكم (الوطاسيين) .

بادر البرتغاليون باحتلال مدينة سبتة ومينائها في بداية أوت ١٤١٥ ، بفضل أسطول بحري ضخم قوامه حوالي ٢٤٠ سفينة من مختلف الأحجام وبمساعدة من الجنوبيين (جنوة) وتمكنوا في ظرف قصير من إحكام سيطرتهم على المدينة دون مقاومة تذكر. وقد حاول المغاربة استرداد المدينة ولكن محاولاتهم باءت بالفشل بل إن البرتغاليين لم يكتفوا بالاستيلاء على سبتة فاتجهت أنظارهم إلى باقي المدن المغربية الأخرى.

٢/- ظهور الدولة الوطاسية وانتهيارها ١٤٧١-١٥٥٤:

في خضم الحملات البرتغالية والتفكك الداخلي لدولة المرينيين برز الوطاسيون على المسرح السياسي (أبو زكرياء يحيى الوطاسي) ، واستحوذهم على السلطة بطريقة غير مباشرة باعتبارهم حجابا في القصر المريني (١٤٢٨-١٤٥٨). وفي عهد وصايتهم اشتد الخطر البرتغالي حيث قاد الملك ألفونس ٥ - alphonse5 حملة عسكرية في نهاية أكتوبر ١٤٥٨ ، استولى من خلالها على ميناء القصر الصغير الواقع بين مدينتي سبتة و طنجة وأقاموا عليها حصنا.

وأمام عجز الوطاسيين عن رد الخطر البرتغالي قابله بروز شيوخ الزوايا والطرق الصوفية والأشراف رافعين راية المقاومة ضد الغزاة، وخاصة أتباع الطريقة الجزولية (نسبة إلى محمد بن سليمان الجزولي) . فحاول الوطاسيون استغلال الفرصة بتزعم حركة جهاد الزوايا .

استغل البرتغاليون هذه الفوضى والصراع القائم بين بقايا المرينيين والحكام الوطاسيين الجدد فاحتلوا أنفا Anfa عام ١٤٦٩م ثم أصيلا عام ١٤٧١م ومدينتي العرائش ثم طنجة في أوت ١٤٧١م.

بعدما آل حكم المغرب إلى الوطاسيين في الربع الأخير من القرن ١٥م، وجدوا أنفسهم عاجزين على بسط نفوذهم وتوفير الأمن والاستقرار في كامل ربوع البلاد ، حيث أصبحت مقسمة إلى وحدات سياسية صغيرة متعددة تحت إشراف زعامات قبلية أو دينية أو مجالس محلية مستقلة ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- في الشمال والشمال الشرقي : إمارات بني راشد في شفشاون ، آل المنظري في تطوان.

- في وسط المغرب وغربه الوسطي : إمارات ابن حدو وأخيه أبي فارس في الجبل الأخضر ، إمارة ابن عامر في تنسيطة . جمهوريات مدن تافزة ، الجمعة ، أزموور .

- في جنوب المغرب وغربه : إمارات آل شنتوف في مراكش ، إمارة مولاي إدريس الهنتاتي في الأطلس الكبير ، نفوذ الشيخ ابن مبارك في آفة .

وهكذا ومع بداية القرن ١٦م كانت دولة البرتغال تملك في المغرب الأقصى مدن سبته وطنجة وأصيلا و أزموور و الصويرة و آسفي مع كامل مقاطعة دكالة الممتدة بين مصب نهري أم الربيع وتنسيطة على المحيط الأطلسي .

٣/- الغزو الاسباني للمنطقة :

أما اسبانيا فبعد تخلصها من آخر إمارة إسلامية بغرناطة عام ١٤٩٢م، دخلت في سباق وتنافس حاد مع البرتغال حول مناطق النفوذ بالمغرب الإسلامي، و كاد هذا التنافس أن يؤدي إلى حرب فيما بينهما غير أن البابا الكسندر السادس تدخل في الأمر من أجل اقتسام النفوذ في المناطق الكشوف الاستعمارية فيما بينهما وفقا لمعاهدة تورديسيلاس (Tordesillas) في ٠٧ جوان ١٤٩٤م. وأعقب ذلك الاتفاق أيضا اقتسام المغرب الإسلامي وفقا لمعاهدة فيلا فرانكا عام ١٥٠٩م والتي نصت على منح المغرب الأقصى للبرتغال مقابل حصول اسبانيا على المغرب الأوسط "الجزائر" ، بحيث تكون صخرة بادس هي الحد الفاصل بين مناطق النفوذتين الاسباني والبرتغالي.

بادر الأسبان حربهم في المنطقة المغاربية تحت دافع ديني بامتياز، من خلال مساهمة الكنيسة التي كان على رأسها البابا الكسندر السادس والذي دعا الشعوب الأوروبية كافة لإعانة اسبانيا ماديا وبشريا لمحاربة المسلمين وأبعاد خطرهم على أوربا، وكما أمر بجمع الضريبة الصليبية Crusada للغرض نفسه . دون أن ننسى وصية الملكة ايزابيلا (زوجة الملك الاسباني فرديناند) التي أوصت قبل وفاتها قائلة: " عليكم بفتح افريقيا وعدم الكف عن القتال في سبيل الدين(المسيحي) ضد الكفار (أي المسلمين) . ولذلك، بادر باحتلال مدينة مليلية عام ١٤٩٧م ومنها وجهوا أنظارهم صوب الموانئ و المدن الساحلية الجزائرية فكانت أول محطة هي العمل باحتلال المرسى الكبير في ١٣ سبتمبر ١٥٠٥م، وذلك لعدة اعتبارات، منها: لأهمية موقعه الاستراتيجي الذي كان يطلق عليه الرومان في السابق بـ " المرسى الرباني" ومن مواصفاته أيضا أنه محمي من الرياح، وقريب جدا من الشواطئ الاسبانية، ولقطع العودة على مسلمي الأندلس مرة أخرى، وهم الذين قضوا طوال القرن ١٥م وهم يحلمون في العودة إليها.

فبعد المرسى الكبير احتلوا مدينة وهران عام ١٥٠٩م، بحملة قوامها ١٥ ألف جندي بقيادة بيدرو نافارو، ولولا خيانة اليهودي شطورا لما تمكن من اقتحام أسوار المدينة وتخريبها وارتكاب مجازر في حق ساكنيها، وبذلك أصبحت المدينة وما يحيط بها من قرى وقبائل تحت سيطرتهم بل أصبحت بعض من تلك القبائل كقبيلة بني عامر متعاونة وفي خدمة الإسبان وضد أبناء جلدتهم .

وبعدها توجهت أنظار الاسبان إلى مدينة بجاية واحتلوها في ٥ جانفي ١٥١٠م، رغم استماتة سكانها للدفاع عنها . وما يبين من طريقة القتل الوحشي والتدمير والخراب الذي يلحق بأي مدينة تقع في أيديهم إنما هو ناتج عن الحقد الصليبي الذي شحنت به نفوس الجند الاسبان وقائدهم بيدرو نافارو من قبل الكاردينال فرنسيسكو خمينيس أسقف طليطلة، وهذا ما دفع بالعديد من المدن الجزائرية الساحلية إلى الاستسلام والرضوخ للاحتلال خوفا من أن يلحقها القتل والدمار وأيضا راجع إلى عدم القدرة على المواجهة، فاستسلمت من

قَبْلُ مدينة تنس ١٥٠٦م ثم سارع من بعدها سالم التومي حاكم مدينة الجزائر عام ١٥١٠م إلى الاستسلام ودفع ضريبة الولاء وتسليم أهم الجزر التي أقاموا عليها حصن البنيون لخنق وشل النشاط البحري .لأن هذا الحصن لا يبعد عن العاصمة إلا بـ ٣٠٠م، فظلت مدينة الجزائر في مرمى ضربات المدفعية الاسبانية ، ثم تلاحق الاستسلام والولاء عام ١٥١١م ، من مدينتي دلس ومستغانم والتزامهما بدفع الضريبة ، ليشد الإسبان رحالهم إلى الشرق فاحتلوا مدينة عنابة ومنها إلى طرابلس التي احتلوها عنوة في جوان ١٥١٠م.

وما يلاحظ أن الاحتلال الاسباني لبلاد المغرب الكبير لم تواجهه صعوبات أو مقاومات عسكرية تذكر وهذا راجع إلى عدم قدرة الكيانات السياسية القائمة في المنطقة الضعيفة جدا وقد أنهكها الصراع الداخلي فيما بينها وأيضاً حركات التمرد والانشقاق التي تعلنها بعض القبائل هنا وهناك . إضافة إلى أن الاسبان استعملوا أسلحة متطورة كالمدافع والبنادق عكس الفرق العسكرية للمسلمين الذين جاهدوا بالسيوف والرماح والبنادق القديمة مما احدث الهزيمة بهم.

وفي الشرق من المتوسط كانت هناك قوة نافذة وهي الدولة العثمانية- على الشرق الأوسط وآسيا الصغرى وشرق أوربا- التي زاد نشاطها البحري و تصادمها مع القوى المسيحية خلال تقديمها الدعم لمسلمي الأندلس الفارين من جحيم القتل والتشريد والإكراه الذي تقوم به محاكم التفتيش ، وفي هذه الظروف والمحن ظهر الإخوة برباروس الذي ذاع صيتهم بين المسلمين في غرب المتوسط ومساعدتهم للأندلسيين وخاصة لما استقروا في جزيرة جربة ، ثم منحهم السلطان محمد الحفصي ميناء حلق الوادي مقابل خمس الغنائم والذي اتخذوا منه مركزا لغزو السفن والمدن المسيحية.

هذه الانتصارات المتتالية للإخوة برباروس وصلت أخبارها إلى سكان الجزائر الذين سارعوا لطلب الاستجداد بهم من اجل وقف الهجمات الأسبانية على مدينتهم. لب الإخوة برباروس طلب الجزائريين دون تردد ففكروا بعد ذلك الرحيل من تونس حيث عملوا على تحرير المدن الشرقية للجزائر بدءا من جيجل التي حرّروها من الجنوبيين عام ١٥١٢م

وجعلوا منها قاعدة لأسطولهم واستقروا فيها، ثم لبوا طلب الإغاثة من أهالي مدينة الجزائر وعلى رأسهم "سالم التومي" وهنا عرفت الجزائر مجيئي عنصرين غريبين عنها هما العنصر التركي المسلم والعنصر الاسباني المسيحي وبذلك عرف المغرب الإسلامي صراعا بحريا وبريا اسبانيا عثمانيا.

ففي عام ١٥١٦م تحول الإخوة بربروس ونزلوا بمدينة الجزائر " وهنا يشير الكثير من المؤرخين إلى أن هذه السنة تعتبر سنة الوجود العثماني بالجزائر وذلك لتمرکز الإخوة بربروس بها وتحويل الجزائر إلى قاعدة عثمانية ".